حكاياتٌ دعويّة
(٨)

بَيْنَ العُصفُور والفَخّ

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

ماذا تَصْنَعُ بضُيوفِكَ؟!

في القاعَةِ الأولىٰ من المكتبةِ الوطَنيةِ في العاصِمةِ آلافُ المجلّداتِ والكُتبِ ، وهذا ما جَعَلَ (عفاف) وصديقتَها (هَلا) تَقَعان في الحَيرةِ!

تقدَّمَتْ مراقِبةُ القاعةِ وسألتْ (عفاف) عن سببِ هذه الحَيرةِ ، فأخبرتْها أن السببَ هو هذه الكميةُ الكبيرةُ من الكتبِ ، بحيثُ لا يستطيعُ الإنسانُ استيعابَ العناوينِ فكيفَ بالكُتبِ؟!

فأرشدتْها إلىٰ أَقْصَرِ الطُّرقِ وأَقْربِها للوصولِ إلىٰ الكتابِ المطلوبِ .

وما هي إلا دقائقُ معدودةٌ حتىٰ وَجَدَتْ (عفاف) كتاباً يَحْوي عَشراتِ القِصصِ المفيدةِ

والتراثيةِ ، فأخذتْهُ وراحَتْ تَقرأ هذهِ القصَّةَ الرائعةَ :

أَسَرَ والي البصرة (مَعَنُ بنِ زائِدَة) في أحدِ المعـاركِ التـي خـاضَهـا جمـاعـةً مـن الأَسْـرىٰ ، فاسْتَشار (مَعْنٌ) مَنْ حولَه في شأْنِهِم ، وكان الإجماعُ علىٰ قَتْلِهم .

... وفي اليومِ الثاني حانَتْ ساعةُ الصِّفْر ، فَتقدَّمَ السَّيافُ ليَقْطَعَ رِقابَهُم ، وكان (معن) والقاضي وكبارُ رجالات الدولةِ قد حَضَروا ذلك...

فما كان مِنْ أحد الأَسْرىٰ إلا أَنْ صاحَ بأعلىٰ صوتِه ، قائِلاً :

مَهْلاً أيُّها الأميرُ ، فنحنُ أَسْرىٰ جِياعٌ ، ولا يجوزُ أَنْ تَقْتُلَنا قبلَ أنْ تُقدِّمَ لنا الطعامَ!

ابتسمَ (معن) وأَمَرَ لهم بالطعامِ ، فبُسِطَ

أمامَهم... ورُتّبتْ مائدةٌ لم يَرَ الناسُ مِثْلَها ، ووُضِعَ عليها أطايبُ الطعامِ .

فقال (معنٍ) للأسْرىٰ : تَفَضَّلوا علىٰ بَرَكَةِ اللهِ ، فراحَ الأسرىٰ يأكلون بنَهَمٍ وشَرَهٍ ، والأميرُ ينظر إليهم مُتَعَجِّباً .

فلما فَرَغُوا من الطعامِ ، شَرِبوا شَراباً حُلْوَ المَذاقِ... ، فوقفَ واحدٌ منهم . وقال : أيّها الأمير! كنّا قَبْلُ أَسْراكَ ، ونحنُ الآن ضُيوفُكَ ، فانْظُرْ ماذا يَفْعَلُ (مَعْنُ بن زائدة) بضيوفِه؟!

... واستَحْسَنَ (معنٌ) كلامَ الرجلِ ، وأمرَ بإطلاقِ سَراحِ جميعِ الأسْرىٰ...

فرتَّل أحدُهم قولَ الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] .

فقال أحدُ الحاضرين في مَجْلِسِه : لم نَعُدْ ندري أيُّها الأمير ، أيُّ يوْمَيْكَ أَشْرَفُ :

يومُ ظَفَرِكَ وانتصارِك علىٰ أعدائِك ، أوْ يومُ عَفْوك عن أسرىٰ أعدائِك؟!

فهزَّ (مَعْنٌ) رأسَه وقال : إنه يومُ العفوِ عنهم...

* * *

(١) سورة فصّلت : /٣٤-٣٥/ .

الموتُ أهونُ عليَّ منَ الفراق!!

أُعْجِبَتْ (هَلا) بالكتابِ الذي اختارَتْه (عفاف) ، وطلبَتْ منها أن تُعيرَها إياه لتقرأَ بعضَ القِصَصِ الهادِفَةِ ، فاعطتها إياه... فراحَتْ تُقَلّبُ أوراقَه البيضاءَ ، وشَدَّ انتباهَها عنوانُ قِصةٍ تدلُّ علىٰ الصّداقَةِ والحبِّ و...

فراحَتْ تَقرأُ القصّةَ ، والتي مُلَخَّصُها ما يلي :

يُروىٰ أنّ فتىٰ منْ ذَوي النِّعَمِ ساءَتْ حالُه ، وقَعَدَ به زَمانُه... وكانتْ له جاريةٌ حسناءُ بارِعةٌ في الغِناءِ ، وكان الرجلُ يُحبُّها حبّاً شَديداً..

ومع الأيامِ تَعَلَّقَ بها كثيراً وتَعلَّقَتْ به أكثرَ...

لكنّ الذي زادَ في تَعقيدِ الأزمةِ أَنَّ الأكْلَ والماءَ قد نَفِد من عندِهما..

فما كانَ من الفتىٰ إلا أنْ صارحَ الجاريةَ بالقولِ : يَعْلَمُ اللهُ تعالىٰ أَنّ مَوتي وأنتِ معي أهونُ عليَّ من فِراقي لكِ ، وإذا بَقِيْنا علىٰ هذهِ الحالِ فنهايةُ أَمْرِنا أَنْ تَحُلَّ بأحدِنا مَنِيَّتُه ؛ فَيقتُلَ الآخَرُ نَفْسَهُ عليه .

فقالتِ الجاريةُ : فما هو الحلُّ برأيِكَ؟

أَطْرَقَ الفتىٰ قليلاً ثمّ قال : أرىٰ أَنْ أَبيعَكِ لمنِ يُحْسِنُ إليكِ ، عسىٰ أَنْ يُخَفِّفَ عنكِ ما تُعانينَ منه ، وأستفيدَ أنا بثمنِكِ في إصلاحِ بعضِ شَأْني..

أَغْمَضتِ الجاريةُ عينَيْها.. ثم قالتْ : واللهِ! لَمَوتي مَعَكَ علىٰ هذه الحالِ آثرُ عِنْدي من انتقالي إلىٰ غيرِكَ ولو مَلِكاً ، ولكنْ ، إذا كان ولا بُدَّ فاصْنَعْ ما تَراهُ مناسِباً...

وِاستشارَ الفتىٰ أصدقاءَه في ذلكَ ، فأشارَ عليه أحدُهم أنْ يَبيعَها إلىٰ أميرِ العِراقِ ، وكانَ وَقْتَئِذٍ (عمرَ بنِ عبد الله بن معمر) ، فَحَمَلها إلىٰ الأميرِ ، فلما رآها اسْتَحسَنها ، وقالَ للفتىٰ : بِكَمْ اشتريْتَ هذه الجاريةَ الحَسناءَ؟

أجابَ الفتىٰ : بمئةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وقد أنفقتُ عليها مئةَ أَلْفِ دينارٍ..

فقالَ الأميرُ : أما ما أَنْفَقْتَ عليها فَغَيرُ مُحتَسَبٍ لكَ به ، وذلك لأنّكَ ما أنفقت تلك الأموالَ إلا للذَّتِكَ ، وأما ثَمَنُها فقد أَمَرْنا لكَ بمئةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، أَفَتَرْضَىٰ بهذا المبلغِ؟

قال الفتىٰ : نَعَمْ أرضىٰ أيُّها الأميرُ...

وأَمَرَ الأميرُ بالمالِ فأُحْضِرَ ، وطَلَبَ من خَدَمِه إدخالَ الجارِيَةِ إلىٰ دارِهِ...

ولما وصلَتْ قُرْبَ بابِ الدار ، التفتَتْ إلىٰ الفتىٰ ، وبَكَتْ ، ثم أَنْشَدَتْ :

هَنيئاً لكَ المال الذي قد أَفَدْتَهُ
ولمْ يَبْقَ في كَفِّيَ غيرَ التَّحَسُّرِ

أقولُ لنَفْسي وهي في كُرُباتِها :

أَقِلِّي فَقَدْ بانَ الحَبيبُ أَوَ اكْثِرِي
إذا لـم يكـنْ لـلأمـرِ عنـدكِ حِيلـةٌ
ولم تَجِدِي بُدّاً من الصَّبْرِ فاصْبِرِي

فسالتِ الدُّموعُ من عَينَيِ الفتىٰ ، وراحَ يقول :

ولولا قُعودُ الدَّهْرِ بي عَنْكِ لم يَكُنْ
يُفرِّقُنا شيءٌ سوىٰ الموتِ فاعْذُرِي
أَروحُ بهَـمٍّ مـن فِـراقِـكِ مُـوْجِـعٍ
أُنـاجـي بـه قَلْبـاً قليـلَ التَّصَبُّـرِ

عليـــكِ ســـلامٌ لا زيـــارةَ بينَنـــا

ولا وَصْلَ إلا أَنْ يشاءَ ابنُ مَعْمر

وعنـــدمـــا سمـــعَ الأميـــرُ كـــلامَ العـــاشِقَيـــن... وبكاءَهما... لَحْظةَ فِراقِهما... رقَّ قلبُه لحالِهِما... فأَمَرَ أَنْ تَمْثُلَ الجاريةُ أمامَه..

فنظرَ إليهِما وقال للفتىٰ : قدْ شئتُ فَخُذْها.. بارَكَ اللهُ لكَ فيها... وبارَكَ لكَ ما أخذتَ من مالٍ ثمنَها..

فحَمَلَ الفتىٰ المالَ الكثيرَ... وأَخَذَ جارِيَتَهُ... وعاد إلىٰ بلادِه... فتَحَسَّنَ حالُه وفَرَّجَ اللهُ عنه... وعن جارِيتِه..!!

* * *

حِوارٌ هادف!!

و... في أَحَدِ أبوابِ الكتاب فَصْلٌ بعنوان : قصصٌ رمزيةٌ هادفةٌ ، قرأَتْ (عفاف) هذهِ الحكايةَ الحِوارِيَّةَ ، فأَعْجَبَتْها كثيراً ، وذلك لما فيها مِنْ فَوائِدَ وحِكَمٍ...

فأخذَتْ دَفْتَرها... وسَجَّلَتْ عليه ما يلي :

يُروىٰ أَنّ عُصْفوراً مَغْروراً رأىٰ فَخّاً مَوْضوعاً تَحْتَ شَجرةٍ ، فَنَظَرَ إليه بازْدِراءٍ... وخاطَبه : مَنْ أنتَ يا هذا؟

فقال الفَخُّ بكلِّ تَواضعٍ وسَكينةٍ : أنا عبدٌ من عبادِ اللهِ...

قال العُصفورُ :... فلِمَ انْحَنىٰ ظَهْرُكَ؟ قال الفخُّ : مِنْ خَشيةِ اللهِ!

التفَتَ العصفورُ يَمْنَةً ويَسْرَةً... ثم سارَ بعضَ الخطواتِ وقد نَفَشَ رِيشَهُ ورَفَعَ مِنْقارَه إلىٰ الأعلىٰ... ثم قال للفَخِّ : فَلِمَ شَدَدْتَ وَسَطَكَ؟

أجاب الفخُّ : لأستطيعَ القيامَ بخِدْمَةِ عِبادِ اللهِ!

فقالَ العصفورُ : وما هذهِ القَصَبَةُ؟

أجابَ الفخُّ : إنها عَصايَ أَتَوكّأ عليها...

فقال العصفورُ : ولماذا تَضَعُ حَبَّةَ القَمحِ علىٰ صَدْرِكَ؟

أجابَ الفخُّ : لا شَيءَ ، إلا أنّي أُحِبُّ أَنْ أَتَصَدَّقَ علىٰ عبادِ اللهِ!

فقال العصفورُ... وقد تَقَدَّمَ نحوَ الفخِّ... واطْمَأَنَّ أَكْثَرَ : أَيجوزُ أَنْ أَلْتَقِطَها؟

ضَحِكَ الفخُّ.. وقال : أَجَلْ ، إنْ احتجْتَ فافْعَلْ..

... وصدَّق العصفور ما سَمِعَ من الفَخِّ... وخَدَعَه الكلامُ المَعْسولُ الذي قاله الفخُّ... فاقتربَ أكثرَ لِيَلْتَقِطَ الحبة ، فانطبقَ عليه الفَخّ ، وأَخَذَ بِحَلْقِه!!

فصاحَ العصفورُ : زيْق.. زيقْ.. زيق.. وراح يُناشِدُ الفَخَّ أنْ يَتْرُكَه.. ويُعْطيَه ما يُريدُ!!

قَهْقَهَ الفخُّ بصوتٍ عالٍ وقال للعُصْفورِ : يا مَغْرورُ! لقد عَمِيَتْ بصيرتُكَ عن رؤيةِ الأمورِ علىٰ حَقيقتِها ، وأَيْقَنْتَ أني مسالمٌ... وناصِحٌ أَمينٌ... ونَسِيْتَ أنّ بيني وبين الطيورِ عَداءً قديماً؟! فَقُلْ ما شِئْتَ... وصِحْ ما حلا لكَ الصِّياحُ ، فما لخَلاصِكَ مِنْ سَبيلٍ...

و... أَيْقَنَ العُصفورُ أنّ ساعةَ الموتِ قد

اقتربَتْ ، فالألَمُ قد زادَ ، والفَخُّ أَطْبَقَ عليه من كلّ مكانٍ ، وقد كان ألمُ الخديعةِ أشدَّ عليه من أَلَمِ الحَديدِ ، عندها لم يكن منه إلا أَنْ قال : اللهمّ إني أعوذُ بكَ من شَخصٍ ذلك قولُهُ ، وهذا فِعْلُهُ!!

والحمدُ لله رب العالمين